الباب العشرون

في تواضعِ الأمراءِ، وانبساطِ العظماءِ

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾[1].

وقال أنسُ بنُ مالكٍ كان رسول الله ﷺ يعودُ المريضَ، ويشيّعُ الجنائزَ، ويجيبُ دعوةَ المملوكِ، ويركبُ الحمارَ، ولقد رأيتُه يومَ خيبر على حمارٍ خطامُه لِيفٌ، وعليه إكافٌ من ليفٍ.

قال: واشترى عليّ بن أبي طالبٍ تمراً بدرهم، فحملَه في مِلْحَفَتِه، قيل: يا أميرَ المؤمنين يُحملُ عنك، قال: أبو العيالِ أحقُّ بحمله.

وقيل: فيما أوحى اللهُ إلى عيسى بنِ مريمَ؛ أن اللَّهَ تعالى قالَ: إني إذا أنعمتُ على عبدٍ نعمة، فاستقبلها بالاستكانةِ أتممتها عليه.

قال: وطلب هشامُ بنُ عبد الملكِ رجلاً، بلَغَه عنه ما كَرِهَ، فأُتِيَ به، فلما صارَ بين يديه، تهدَّده هشامٌ وتوعَّده، وانبسطَ الرجلُ، فقال: يا أميرَ المؤمنين؛ تأبى أنْ نتكلّمَ كلاماً بين يديك؟ أليسَ اللهُ يقول: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾[2]، فتجادلُ جدالاً بين يدي الله؛ وأنت تأبى أن نتكلّمَ كلاماً بين يديك؟ قال: فنزلَ هشامٌ عن سريرِه تلك الساعة، وخرَّ حتى لَصِقَ بالأرض مستكيناً

(1) الفرقان: الآية (63).

(2) النحل: الآية (111).

متخشعاً، ثم قال للرجل: ويحكَ تَكَلَّم، فما بَرِحَ الرجلُ حتى تكلم، وقَبِلَ هشامٌ عذرَه، ورضي عنه ووصله وأكرمه.

وقال عليُّ بنُ أبي طالب ﷺ: ثلاثٌ من شرفِ التواضعِ؛ أن يرضى بالمجلسِ الأدنى عن شرفِ المجلس، وأن يكرهَ المديحةَ بالبرِّ، وأن يَدَعَ المراءَ وإن يكنْ محقاً.

وقال الفضلُ بنُ الربيعِ: ركبتُ مع هارونَ إلى الفضيل؛ فلمّا قرعنا بابَه خرج عليُّ بنُ الفضيلِ، فقلتُ: يا عليُّ هذا أميرُ المؤمنين، يريدُ الدخولَ على أبيك، قال عليٌّ: وما يصنعُ الخليفةُ بأبي وهو مشغولٌ بالبكاءِ والنحيب؟ فلما دخل عليه وسلّم، جلس بين يديه ساعةً، فلمّا رآه الفضيلُ لم يتكلمْ بشيءٍ قامَ، وخرج.

وقال ابن عَبّاس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما منْ بني آدمَ إلا في رأسِه سلسلتان إحداهما في السماءِ السابعة، والأخرى في الأرضِ السابعة، فإذا تواضعَ رفعَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بسلسلتِهِ التي في السماءِ، وإذا أراد أن يرفعَ نفسَه وضع اللَّهُ بسلسلته التي في الأرض، ووضعَه اللَّهُ، وما تواضعَ عبدٌ للّهِ إلا ازدادَ له عزاً».

وكان سليمانُ النبيّ عليه السلامُ، فيما آتاه الله من الملكِ، إذا دخلَ المسجدَ، فنظرَ إلى مسكينٍ جلس إليه، وقالَ: مسكينٌ جالَسَ مسكيناً.

قال: وخَرَج عمرُ بنُ هشام[1] لينظرَ في أمورِ الناسِ والعمالِ فريداً،

---

(1) ليس في الخلفاء مَنْ اسمه: (عمرُ بن هشام) قط، وخليفةُ خليفة رسول الله ﷺ هو أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، ولم يكن في طبعه التصنع، وقد كان في المدينة، ولم يكن فيها رهبان ولا صوامع ولا بيع في عهده ﷺ، وغالب الظن أن هذه القصة تلفيق، مع أبياتها الشعرية، والله أعلم.

وحيداً، راجلاً، معه عَصَاهُ وركوةٌ، في خَلِقٍ من الثياب، على زيٍّ مساكينَ، قال فبلغ إلى عند صومعةِ راهبٍ، قال: فتأملَ إليه الراهبُ، وقال: أنتَ خليفةُ رسولِ اللهِ قال: «لا»، قال: أنت خليفةُ خليفةِ رسول الله؟ قال: نعم، قال: كيف عرفتني؟ قال: ما عرفتُكَ إلا بعلامتِكَ التي وجدتُ في الكتبِ، فدفعَ إليه كاغداً فيه من الورِق، قال: خذها فتزود لنفسك، فأبى، قال: معي زادي، ومضى على سبيله، فأنشد فيه الراهب يقول:

يا من تَرفَّع بالدنيا وزينتها
ليس الترفع نَقْلُ الطينِ بالطينِ
إذا أردتَ شريفَ الناسِ كلهمُ
فانظر إلى مَلِكٍ في زيِّ مسكينِ
فذاكَ من حسُنَتْ في الناسِ عِشْرَتُه
وذاك يَصْلُحُ للدنيا وللدينِ

الحكاية

حكي: أن العباسَ عمَّ المصطفى ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ وسأله الإمارةَ، فقال النبيّ ﷺ يا عمِّ نفسٌ تنجيها خير من إمارةٍ لا تحصيها، إنَّ الإمارةَ حسرةٌ وندامة، فإن استطعتَ ألّا تكون أميراً فافعل.